

مدرسة فرانكفورت ونقد العقل الأداتي: مقارنة في فكر أدورنو، هوركهايمر وماركوز

The Frankfurt School and the Critique of Instrumental Reason: An Approach to the Thought of Adorno, Horkheimer, and Marcuse



بوعلام معطر *

جامعة محمد خيضر - بسكرة

boualam.maater@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2025/08/03 تاريخ القبول: 2025/11/22 تاريخ النشر: 2025/12/16



ملخص:

يتناول هذا المقال بالتحليل النقدي فكر مدرسة فرانكفورت، من خلال التركيز على إسهامات ثلاثة من أبرز ممثليها: تيودور أدورنو، ماكس هوركهايمر، وهيربرت ماركوز. وينطلق من إشكالية مركزية مفادها: كيف فككت مدرسة فرانكفورت العقل الأداتي بوصفه أداة للهيمنة والاستلاب في المجتمعات الرأسمالية الحديثة؟

ويعتمد المقال على المنهج التحليلي-التركيبي لمساءلة المفاهيم المركزية كالعقل الأداتي، الهيمنة، التشيؤ، مع إظهار كيف تم توظيف أدوات من التحليل النفسي والفكر الماركسي للكشف عن البنية الإيديولوجية للثقافة والإعلام والاستهلاك. كما يبرز المقال نقد المدرسة للعقلانية الغربية التي تحوّلت في تصورهم إلى عقل أداتي، موجّه نحو الهيمنة على الطبيعة والإنسان، لا نحو التحرر.

الكلمات المفتاحية: مدرسة فرانكفورت، العقل الأداتي، الهيمنة، الثقافة، الاستهلاك

Abstract:

This article offers a critical analysis of the Frankfurt School's philosophical contributions, focusing on the thought of Adorno, Horkheimer, and Marcuse. It explores the central question: how did the Frankfurt thinkers deconstruct instrumental reason as a tool of domination and alienation in modern capitalist societies? Using an

* المؤلف المراسل

analytical-synthetic approach, the paper interrogates key concepts such as instrumental rationality, domination, reification, showing how psychoanalysis and Marxist theory were mobilized to critique ideology, culture, media, and consumption.

key words: Frankfurt School, instrumental reason, domination, culture, consumption.

مقدمة:

يأتي هذا البحث في سياق الاهتمام المتزايد بإشكالية التحول الذي عرفه العقل الحديث، من عقل نقدي تحرري كما تصوّره فلاسفة الأنوار، إلى عقل أدائي تقني هيمني كما تصوّره فلاسفة مدرسة فرانكفورت. ففي ظل تعاظم سيطرة الرأسمالية المعولمة، وتفكك الروابط الاجتماعية، وتحول الثقافة والإعلام إلى أدوات توجيه وإخضاع، تبرز الحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى مساءلة العقل الأدائي كآلية من آليات السيطرة الرمزية والاقتصادية والسياسية. وقد أبانت أبحاث تيودور أدورنو وماكس هوركهايمر وهيربرت ماركوز، ضمن ما يُعرف بـ "النظرية النقدية"، عن دور العقلانية الغربية الحديثة في تكريس الهيمنة بدل التحرر، وإعادة إنتاج البنى السلطوية بدل تفكيكها.

لقد انشغل هؤلاء الرواد بتفكيك البنية العميقة للعقلانية الغربية الحديثة، مبرزين كيف تحوّلت من مشروع تنويري يهدف إلى تحرير الإنسان إلى نمط أدائي يُوظف لإعادة إنتاج الهيمنة. ومن خلال مؤلفات مثل "جدل التنوير"، و"الإنسان ذو البعد الواحد"، و"أفول العقل"، رسم هؤلاء الفلاسفة صورة قائمة لحداثة مفرغة من بعدها التحرري، وغارقة في منطق النجاعة والأداء والسلطوية. وقد بيّنت هذه النظرية، كما هو ظاهر في كتب مثل جدل التنوير، أفول العقل، والإنسان ذو البعد الواحد، أن الحداثة لم تكن مشروعًا تحرريًا خالصًا، بل انطوت على نزعة قمعية تمثلت في إخضاع الإنسان والطبيعة لمنطق النجاعة، والأداء، والتكميم. غير أن ما يلفت الانتباه هو أن أغلب الدراسات السابقة ركزت على الأصول الماركسية أو النفسية أو الجمالية لهذا النقد، دون التوسع في تحليل العلاقة المعقدة بين العقل الأدائي ومؤسسات السيطرة المعاصرة كالإعلام والثقافة والتقنية.

بناءً على ذلك، تهدف الدراسة إلى الإجابة عن السؤال المركزي: كيف فكّكت مدرسة فرانكفورت آليات اشتغال العقل الأدائي، وما مدى راهنية هذا التفكيك في فهم ديناميكيات السيطرة الثقافية والاجتماعية المعاصرة؟ وتبني فرضية البحث على أن المفكرين الثلاثة — أدورنو، هوركهايمر، وماركوز — قد قدّموا تصوّرًا نقديًا عميقًا يُعد من أبرز الأسس النظرية لفهم أزمة الحداثة والعقل في القرن العشرين، بل ويمدّدنا بعدة مفاتيح لفهم مجتمع اليوم. تنبع أهمية الموضوع من الحاجة إلى إعادة تفعيل النظرية النقدية في قراءة تحولات السلطة الثقافية والإعلامية، خاصة في ظل سيادة "العقلنة" التقنية التي تُفرغ الإنسان من أبعاده القيمة والجمالية، وتحوله إلى مجرد وظيفة ضمن نظام إنتاج استهلاكي.

أولاً: السياق التاريخي والنظري لمدرسة فرانكفورت ونقدها للعقل الأدائي

تُنسب مدرسة فرانكفورت إلى مجموعة من الباحثين الألمان في الفلسفة وعلم الاجتماع. الذين أسسوا معهد الأبحاث الاجتماعية سنة 1923م بمعهد الأبحاث الاجتماعية الذي أسسه ماكس هوركهايمر [Max Horkheimer] (1895-1973) بمدينة فرانكفورت، ثم نُقل نشاطه منذ سنة 1933م إلى نيويورك، اتجه مجهود المجموعة، إلى بلورة النظرية النقدية، وهي نظرية تناولوا فيها بالنقد المجتمع الرأسمالي المتقدم وعلم الاجتماع وعلم النفس.

وقد انبثقت مدرسة فرانكفورت من رحم التحولات العميقة التي شهدتها المجتمع الألماني في مطلع القرن العشرين، حيث تأسس "معهد البحوث الاجتماعية" في مدينة فرانكفورت، ليشكّل لاحقاً النواة المؤسسة لما سيعرف بالنظرية النقدية. منذ بداياتها، سعت هذه المدرسة إلى إعادة إحياء البعد النقدي في الفلسفة الماركسية، في مواجهة الجمود الفكري الذي أصابها بعد أن تحولت إلى دوغما أيديولوجية مغلقة، خاصة في ظل تعثر الحركات العمالية، وصعود النزعات البيروقراطية في النظم الاشتراكية، وتزايد الاستلاب داخل المجتمعات الرأسمالية.

عرفت المدرسة ثلاث مراحل مفصلية في مسارها التاريخي: مرحلة التأسيس، ثم مرحلة المنفى، وأخيراً مرحلة إعادة التمرکز. في المرحلة الأولى، تمحور اهتمام المفكرين المؤسسين حول تشخيص التناقضات التي تعصف بالمجتمع الصناعي الحديث، ساعين إلى بلورة مقارنة تتجاوز التفسير الاقتصادي الضيق للمادية التاريخية، من خلال استلهاً أدوات من التحليل النفسي والفكر الفلسفي الكلاسيكي.

أما المرحلة الثانية، فقد جاءت نتيجة للاضطرابات السياسية التي شهدتها أوروبا، خصوصاً مع صعود النازية، مما اضطر مفكري المعهد إلى الهجرة نحو الولايات المتحدة، حيث واصلوا أبحاثهم في مناخ أكاديمي جديد، ولكن بروح تشاؤمية أكثر حدة. لقد أدى هذا السياق إلى تحوّل في نبرة النقد؛ من التركيز على الثورة الاجتماعية إلى الانشغال بفشل الحداثة في تحقيق مشروعها التحرري، وهو ما تجلّى بوضوح في كتاب "جدل التنوير"، الذي مثّل منعطفاً نقدياً جذرياً في تشخيص أزمة العقل الغربي.

أما المرحلة الثالثة، فقد تميزت بعودة بعض أعضاء المعهد إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أُعيد فتح مقر المعهد في فرانكفورت، ولكن ضمن تسوية سياسية-أكاديمية قضت بالتخفيف من الطابع الثوري للرؤية النقدية مقابل الاعتراف المؤسسي¹. في هذه المرحلة، ساهم الجيل الثاني من المفكرين، مثل يورغن هابرماس Jürgen Habermas، في تطوير النظرية النقدية عبر تجاوز نبرة التشاؤم التي طبعت الجيل الأول، والدعوة إلى عقل تواصلٍ بديل عن العقل الأدائي. أما على المستوى النظري، فقد تشكّل نقد العقل الأدائي أحد أهم أركان مشروع فرانكفورت الفلسفي. فقد اعتبر مفكرو المدرسة أن التاريخ الغربي للعقل، منذ عصر التنوير، عرف انحرافاً وظيفياً حوّل العقل من أداة للفهم والتأمل إلى أداة للضبط والسيطرة. لقد انقلب مشروع التنوير على ذاته، فأفرز عقلاً يُقاس فيه كل شيء بمقاييس الكم والنجاعة، على حساب المعنى والقيمة. وبذلك، صار العلم والتقنية لا يُوظفان في خدمة تحرر الإنسان، بل في تكريس اغترابه عن ذاته وعن العالم.

لا ينحصر هذا النقد في البنى الاقتصادية والسياسية فحسب، بل يمتد إلى الحقول الرمزية كالثقافة، والتعليم، والإعلام، التي تُستثمر لإعادة إنتاج الامتثال وتكريس السلطة بشكل ناعم وخفي. ويكشف هذا المنظور عن فهم دقيق لآليات السيطرة الحديثة، حيث لم تعد الهيمنة تمارس فقط من خلال القهر المباشر، بل عبر تشكيل الأذواق، وصناعة الرأي العام، وتوجيه الوعي الجمعي وفق منطق استهلاكي براغماتي.

وهكذا، فإن قراءة مدرسة فرانكفورت للسياق الحديث تكشف عن نزعة فلسفية عميقة في مساءلة أسس العقلنة الغربية، ومحاولة تجاوزها من خلال نقد جذري يتجاوز الظواهر إلى البنى المؤسسة للواقع الاجتماعي. إن العقل الأداتي، كما فهمه هؤلاء المفكرون، لا يُمثّل مجرد خلل في مسار العقلانية، بل هو عرض لأزمة حضارية أوسع، تستوجب تفكيكها لا فقط نظرياً، بل أيضاً على مستوى الممارسة المجتمعية والخيال الثقافي.

لقد أدى هذا التحول في بنية العقل إلى اختلال عميق في العلاقة بين الإنسان والعالم، بحيث لم تعد الطبيعة تُفهم ككيان حيّ ذي قيمة في ذاته، بل كخزان موارد يخضع لعمليات التشبيء والتكميم. وهذا ما أدّى إلى ولادة نموذج حضاري يُعلي من شأن السيطرة التقنية ويُهمّش أبعاد المعنى، والتأمل، والعلاقة غير النفعية مع الوجود. في ظل هذا المنطق الأداتي، أصبحت العلاقات الإنسانية مشروطة بالوظيفية، وتحول الفعل التواصلي إلى تبادل مصلحي، مما أسهم في تعميق الاغتراب الفردي والجماعي، وجعل الإنسان رهينة منطق السوق، لا فاعلاً حراً فيه.

ومن هذا المنظور، فإن نقد مدرسة فرانكفورت للعقل الأداتي لا يمكن فهمه فقط بوصفه موقفاً فلسفياً من الحداثة، بل هو في جوهره مشروع تحليلي متعدد المستويات، يمسّ البعد الإستمولوجي للعقل، كما يمسّ البعد الاجتماعي والسياسي للعالم المعاصر. فالعقل الأداتي لا يقتصر على نمط من التفكير المجرد، بل يعكس طريقة في تنظيم الحياة، وتوجيه السلوك، وإعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية تحت هيمنة معايير الكفاءة والمنفعة.

ومن هنا تتضح راهنية النظرية النقدية، التي لا تزال تُشكّل مرجعاً حيويًا في مساءلة البنى الرمزية للمجتمع الاستهلاكي، ومجالاً مفتوحاً لإعادة التفكير في شروط التحرر والكرامة الإنسانية في عالم يتجه نحو التجانس الثقافي والانغلاق القيمي.

ثانياً: أدورنو وهوركهايمر: العقل الأدائي وجدلية التنوير

يمثل كتاب جدلية التنوير (1947) النص المؤسس لفكر مدرسة فرانكفورت. فقد أوضح أدورنو وهوركهايمر أن التنوير، بدلاً من أن يكون مشروعاً للتحرر، انقلب إلى نسق أدائي يسعى للسيطرة على الطبيعة والإنسان عبر منطق الكمّ والنجاعة؛ إذ يرى الكاتبان أن العقل الغربي، منذ لحظة انبثاقه مع الفلسفة القديمة ومروراً بالفكر العلمي الحديث، انحدر تدريجياً في علاقة هيمنة على العالم، حيث تمثل هدفه الأساسي في السيطرة على الطبيعة وتطويعها عبر المعرفة والاختزال والكمّ. "إذ لم تعد منظمات العالم الحقوقية مجعاً لتأمين حقوق وكرامة الشعوب والأمم، ولكنها أضحت ذريعة علنية لتأمين غطرسة المهيمن على المهيمن عليه. فلا الأفكار البشرية ولا التعاليم الدينية المسيحية، ولا شريعة اليهود بكافلة قداسة الدين، وما جاء به من تعاليم وشرائع هادية للإنسان لا نافية له"².

وتقوم أطروحة أدورنو وهوركهايمر على فكرة أن العقلنة، بدل أن تؤدي إلى التقدم والتحرر، تحوّلت إلى نسق أدائي وظيفي يختزل كل شيء في أبعاد قابلة للقياس والتصنيف. فالإنسان الحديث لم يعد يسعى إلى الفهم العميق أو إلى إدراك المعنى، بل إلى التحكم والسيطرة. لقد انقلب العقل على غايته الأصلية، وبات يسير وفق منطق الوسيلة والنجاعة، الأمر الذي جعل الأدوات التقنية والعلمية، التي كان يُفترض أن تكون وسائل لتحرير الإنسان، تتحول إلى أدوات لإخضاعه.

ومن أبرز المفاهيم التي طورها هذان الفيلسوفان لفهم آليات هذا التحول، مفهوم "الصناعة الثقافية"، التي تعني إنتاج الثقافة وفق منطق السوق، بحيث تُفرغ من مضامينها التربوية والنقدية، لتصبح مجرد وسيلة للترفيه والتوجيه الأيديولوجي. فالثقافة، عوض أن تفتح أفق التأمل والنقد، أصبحت تُصاغ بطريقة تُعيد إنتاج الامتثال، وتكرّس القيم

الرأسمالية من خلال التمنيظ والتكرار والسطحية. والنتيجة هي تراجع الحس الجمالي، وانحاء الفردية الأصلية لصالح جمهور مستهلك، منقاد، فاقد للقدرة على التمييز النقدي. كما يكشف تحليل أدورنو وهوركهايمر أن العلاقة بالعالم، كما تشكلت في ظل العقل الأداتي، لم تعد قائمة على الحوار أو الاحترام المتبادل، بل على التثبيء: فكل شيء يُحتزل في قيمته النفعية، بما في ذلك الإنسان ذاته، الذي يُعامل ككائن وظيفي في منظومة اجتماعية واقتصادية قائمة على الأداء والإنتاج. وهذه الرؤية الكمية للحياة لا تؤدي فقط إلى اغتراب الفرد، بل إلى تآكل المعنى من الوجود الإنساني.

من جهة أخرى، ينتقد المفكران بشدة الاستخدام الأيديولوجي للمعرفة العلمية والاجتماعية، خاصة حين تُسخّر لصالح السلطة أو السوق. إذ يصبح علم الاجتماع، مثلاً، أداة للضبط الاجتماعي بدل أن يكون وسيلة لفهم التناقضات وتحرير الإنسان. فالوظيفية الزائدة في المعرفة تُفرض على تطبيع السيطرة، وجعلها تبدو وكأنها طبيعية أو ضرورية، وهو ما يرسخ منظومة من القبول والانقياد اللاواعي لدى الأفراد.

وتبرز أهمية هذا التحليل في قدرته على كشف أن السيطرة في المجتمعات الحديثة لم تعد ترتكز على القهر المباشر، بل على وسائل ناعمة كاللغة، والصورة، والإعلام، التي تُمارَس من خلالها الهيمنة بشكل غير محسوس. فمن خلال التحكم في الرموز والمعاني، تتم إعادة تشكيل الوعي الجمعي وتوجيهه، بما يتماشى مع مصالح النظام القائم³ وهكذا تتحول الحرية إلى وهم، ويُعاد إنتاج الاستلاب داخل بنيات تبدو عقلانية وحيادية في ظاهرها، لكنها مشبعة بعلاقات سلطة غير مرئية. ولا يقتصر تشخيص أدورنو وهوركهايمر على وصف هذه المظاهر، بل يتجاوز ذلك إلى مساءلة البنية العميقة للعقل الغربي، وفضح مفارقاته الداخلية. فجدلوية التنوير، كما يفهمانها، ليست مجرد مفارقة تاريخية، بل معضلة فلسفية قائمة على تناقض جوهري: التنوير الذي بدأ كمشروع تحرري، انتهى إلى إنتاج أنظمة قمع ناعمة تغلف سلطتها برداء العقل والعلم. إن أهمية هذا النقد تكمن في قدرته على خلخلة المسلمات التي بُنيت عليها الحداثة الغربية، وفتح أفق جديد للتفكير في

العلاقة بين العقل، والسيطرة، والحرية. فهو لا يدعو إلى رفض التنوير كلياً، بل إلى تفكيكه، وإعادة بنائه على أسس تتجاوز النزعة الأدائية، نحو عقلانية تتسع للمعنى، والقيمة، والتأمل، والاختلاف. لقد حاول أدورنو وهوركهايمر من خلال نقد العقل الأدائي الكشف عن آليات السيطرة التي تمارسها الحداثة على الذات الإنسانية، من خلال مؤسسات تبدو في ظاهرها حيادية أو تقدمية، مثل الإعلام، والثقافة، والتعليم. فقد رأوا أن هذه المجالات أصبحت مشبعة بقيم السوق، وتوظف بشكل ناعم لتوجيه السلوك البشري وقولبته، بعيداً عن العنف المباشر. في هذا السياق، يُعدّ مفهوم "الصناعة الثقافية" أحد أبرز المداخل لفهم هذا التحول⁴.

فالثقافة، التي كانت في السابق فضاءً للخلق الحرّ والتعبير الجمالي والنقد، أصبحت تُنتج وتستهلك كما تُنتج السلع، وفق منطق التكرار، التنميط، والإبحار. ويتم ذلك عبر آليات دقيقة: من اختيار المواضيع، إلى أنماط التقديم، إلى التحكم في الذوق العام، حيث يُعاد تشكيل الوعي ليتطابق حاجات النظام الرأسمالي. "وهنا لا تكون الهيمنة صريحة، بل مقنّعة، متغلغلة في الحياة اليومية، لدرجة تجعل الأفراد يتماهون معها دون وعي منهم"⁵

وقد أشار أدورنو إلى أن ما يُروّج له من آراء في الصحف، والإعلانات، والبرامج الترفيهية، لا يعكس وعياً حراً، بل إعادة إنتاج لبُنى جاهزة من التفكير الجاهز والامتثال. إنه نوع من "الجهل المتواطئ"، حيث تصبح اللغة نفسها أداة لإغلاق التفكير، لا فتحه. ولذا شبّه كثيراً دور الإعلام بدور التنجيم الحديث، حين يُقنع الناس بأن حياتهم تُدار من الخارج، وأن اختياراتهم ليست سوى صدى لما يُقال لهم أنه طبيعي⁶.

ولم يتوقف نقدهما عند المحتوى، بل امتد إلى شكل الخطاب، وطرائق التقديم، وسرعة الإيقاع، وتأثير الصورة، مما يشكّل بيئة نفسية ثقافية تستبطن قيم الأداء والإنتاج والنفعية، وتفرغ الإنسان من أبعاده القيمة والتأملية. في هذه البيئة، يغيب التفكير التأملي، ويُستبدل بمواقف انفعالية سطحية، متطابقة مع منطق السوق والإشباع الفوري.

إن التشبيء (Reification) بوصفه مفهوماً مركزياً في النظرية النقدية، لا يشير فقط إلى اختزال الإنسان إلى شيء أو وسيلة، بل إلى تعميم منطق الشيء على كل مجالات الحياة: من العمل إلى الحب، من الفن إلى اللغة. فتشبيء الآخر، في هذا السياق، هو تجريد العلاقة الإنسانية من بعدها الأخلاقي، والنظر إليها من زاوية المردودية والمنفعة، وهذا ما يُفضي إلى تدمير المعنى العميق للوجود المشترك. وفي هذا المناخ، لم يعد الإنسان مجرد كائن مُستهلَك، بل صار يُنتج بدوره كموضوع داخل سلسلة من القيم المصنّعة. وفي رأي أدورنو، فإن هذه الصناعة لا تستهدف الجسد وحده، بل تهيمن على الوعي والعاطفة والتصور، حتى تُصبح الذات الحديثة ذاتاً مفرغة، تتجاوب مع صور العالم أكثر مما تتفاعل مع واقعه الفعلي.

لقد أبرز المفكران في جدل التنوير أن الرغبة في السيطرة التي رافقت نشوء العقل الغربي لم تكن بالضرورة مادية فقط، بل رمزية أيضاً. فقد بدأت الهيمنة بمحاولة إخضاع الطبيعة عبر مفاهيم العلم والتقنية، ثم امتدت إلى الإنسان نفسه، الذي أصبح يُرى من خلال مفاهيم الإحصاء، والتقويم، والتوظيف. ومن هنا جاءت مفارقة التنوير: كلما سعى الإنسان للتحرر من الخوف والجهل، كلما ازداد خضوعه لأشكال جديدة من السيطرة الأكثر تعقيداً وخفاءً.

ولعل أهمية هذه المقاربة تكمن في قدرتها على تجاوز التحليل الاقتصادي الكلاسيكي للهيمنة. فالسلطة، كما يكشف أدورنو وهوركهايمر، لا تعمل فقط من خلال السياسة أو الاقتصاد، بل من خلال الثقافة، والمعنى، والشكل الجمالي، والذوق العام. وهذا ما يجعل من النظرية النقدية أداة حاسمة لفهم المجتمعات ما بعد الصناعية، حيث لم تعد السيطرة ترتكز على القمع، بل على الإقناع، وعلى توجيه الحاجات نفسها.

وفي عصر الإعلام الرقمي، تبدو أفكار أدورنو وهوركهايمر أكثر مصداقية من أي وقت مضى. فالصناعة الثقافية لم تعد حكراً على الراديو والسينما والتلفزيون، بل أصبحت تتجلى في حسابات تضبط المحتوى وتتحكم في تدفقات المعلومة والاهتمام. ومن خلال

اقتصاد الانتباه، تتم إعادة إنتاج الوعي الجمعي على نحو غير محسوس، ما يرسّخ منطق العقل الأداتي، ويُقصي كل ما لا يخضع للحساب أو التصنيف.

ولذلك، فإن إعادة قراءة جدلية التنوير ليست مجرد تمرين فكري، بل ضرورة لفهم ما نعيشه اليوم من اختزال للتفكير إلى مهارات قابلة للقياس، وتهميش للخيال، وتحويل الإنسان إلى كائن وظيفي. هذا ما يجعل المشروع النقدي الذي دشنه أدورنو وهوركهايمر مفتوحًا على الحاضر، ومُلهِمًا لأي تفكير يروم تجاوز التبسيط والتطبيع، نحو عقلانية قادرة على مساءلة ذاتها، وعلى إعادة الاعتبار لما هو غير قابل للاختزال.

ثالثا: ماركوز: الإنسان ذو البعد الواحد واحتواء العقل النقدي

يُعدّ هربرت ماركوز Herbert Marcuse [1898-1979] أحد أبرز ممثلي الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت، وقد مثّل فكره تطورًا نوعيًا في النظرية النقدية، من خلال مزجه بين الفلسفة الماركسية والتحليل النفسي، وسعيه إلى فهم آليات السيطرة في المجتمعات الصناعية المتقدمة. وقد برز إسهامه النظري بوجه خاص في مؤلفه /الإنسان ذو البعد الواحد (1964)، الذي يُعد من أهم النصوص التي حللت التحولات العميقة التي طرأت على الذات والوعي والثقافة في ظل الرأسمالية المعاصرة.

ينطلق ماركوز من تشخيص مفاده أن العقل في المجتمعات الصناعية لم يعد عقلاً تحرريًا، يسعى إلى مساءلة الواقع وتغييره، بل صار عقلاً أداتيًا ووظيفيًا، منغمسًا في تلبية حاجات النظام القائم، ومنخرطًا في إعادة إنتاج شروط السيطرة، حتى حين يظن أنه يمارس التفكير الحر. فالمجتمع الرأسمالي، في تصوره، لا يعتمد على القمع المباشر كما في الأنظمة الشمولية، بل على الاستيعاب الناعم والمبكر للمقاومة، من خلال التمنييط، والإغراق في الاستهلاك، وتوجيه الرغبات، بما يؤدي إلى خلق ذات موحدة، خاضعة، فاقدة للقدرة على التفكير خارج ما هو ممكن ومسموح به. ويُعدّ مفهوم "البعد الواحد" عند ماركوز مفتاحًا لفهم هذا التحول. فالفرد المعاصر، في ظل هيمنة العقل الأداتي، يعيش داخل أفق معرفي ووجداني مغلق، حيث يتم تقييد خياله، وتشويه حاجاته، وحصر تفكيره في معايير

الكفاءة والمنفعة. لم يعد هناك تعدد في الأبعاد أو تعارضات حقيقية بين الواقع والطموح، بين النظام القائم والممكنات البديلة؛ بل صارت المعارضة نفسها جزءًا من النظام، تُستوعَب وتُفرغ من مضمونها الثوري. وهكذا، يُنتج المجتمع فردًا "سعيدًا في اغترابه"، مقتنعًا بجدوى النظام، وغير قادر على تصور عالم مختلف.

يؤكد ماركوز أن هذا الانغلاق الفكري لا يتم عبر فرض الرقابة أو المنع، بل من خلال آليات معقدة تنخرط فيها اللغة، والتقنية، والإعلام، والمدرسة، والمؤسسات الاجتماعية. فاللغة تُفرغ من محتواها النقدي، وتُعاد هندستها لتصبح أداة للتوجيه بدل أن تكون وسيلة للتفكير. يتم تشجيع التعبيرات المحايدة، والتقارير الجاهزة، والخطابات الإعلانية، على حساب المفاهيم الجدلية والنقدية التي تثير الأسئلة أو تزعزع الاستقرار. ومن خلال هذه اللغة المسطّحة، يتم توجيه الأفراد نحو التفكير النمطي، والتفاعل السطحي، والقبول الضمني بمنطق الأشياء كما هي.

أما الإعلام، فقد تحول في نظر ماركوز إلى أداة مركزية في إنتاج الامتثال. فهو لا يكفي بنقل الأخبار أو تقديم الترفيه، بل يؤدي وظيفة أيديولوجية تتمثل في تشكيل الرأي العام، وتحديد ما هو جدير بالاهتمام، وما هو ثانوي أو غير مقبول. الإعلام المعاصر، كما يصوّره، يخلق واقعًا افتراضيًا مكثفًا بذاته، يُحاكي الحياة دون أن يعكسها⁷، ويُغرق المتلقي في عالم من الصور والإشارات التي تُشبع حاجته الفورية دون أن تثير فيه الرغبة في الفهم أو النقد.

ويعتمد هذا التحليل إلى التقنية، التي يُنظر إليها غالبًا باعتبارها محايدة أو تقدمية. لكن ماركوز يرى أن التكنولوجيا، في سياق المجتمع الرأسمالي، ليست بريئة، بل مشروطة بمنطق النظام ومصالحه. إنها تُسَخَّر ليس لتحرير الإنسان، بل لتحسين الإنتاج، وتعظيم الأداء، وإعادة تشكيل العالم وفق معايير التحكم والمردودية. وحتى لو وفرت هذه التقنية رفاهًا ماديًا، فإنها تفعل ذلك على حساب الحرية الداخلية، والقدرة على التفكير البديل، والإحساس العميق بالمعنى.

ويُظهر ماركوز أن السيطرة المعاصرة لا تُمارس من أعلى فحسب، بل يتم "تفويضها" إلى الذات نفسها. فالفرد الحديث يضطلع بدور المراقب والمراقب في آن، يتطوَّع للامتثال، ويُعيد إنتاج القيم السائدة في سلوكه ولغته واستهلاكه، دون حاجة إلى تدخل سلطوي مباشر. وقد سمى هذا الوضع بـ"التحكم الذاتي المبرمج"، حيث تُغرس القيم والمعتقدات بطريقة تجعل من الفرد حارسًا على نفسه. وفي هذا الإطار، يتناول ماركوز مسألة الحاجات الزائفة، التي يُنتجها المجتمع الاستهلاكي عبر الإعلانات ووسائل الإعلام، ويُقنع بها الأفراد كأنها ضرورية. هذه الحاجات تُخدِّر الوعي، وتُلهي الإنسان عن الحاجات الحقيقية المتصلة بالحرية، والعدالة، وتحقيق الذات. وهكذا تتحول الحرية إلى حرية استهلاك، ويُختزل الإنسان إلى كائن يرغب، يقتني، يُبهر، دون أن يفكر في كسر الدائرة⁸. ومن بين المسارات التي تناولها ماركوز أيضًا، العلاقة بين الثقافة والتسلُّع. فقد رأى أن الفنون، والمعرفة، وحتى الأخلاق، لم تنج من التشيي. فالثقافة الرفيعة، التي كانت في ما مضى تعبيرًا عن التوتر الجمالي والرفض الوجودي، أُفرغت من طابعها النقدي، وصارت تُسوَّق كسلعة، وتُقدَّم كمجرد ترفيه أو تذوق فردي. وهذا التحول أفقد الثقافة قدرتها على إحداث صدمة أو إثارة تساؤل، وأدخلها في دوامة الامتثال والاستعمال.

على هذا الأساس فإن ما يميز هيربرت ماركوز هو ربطه العميق بين البنية النفسية للفرد، وآليات السيطرة الاجتماعية، مما جعله من أوائل من نبهوا إلى أهمية اللاوعي السياسي، والدور الخفي للرغبات في تشكيل الامتثال. وعلى الرغم من نبرة التشاؤم التي طبعت كتابات ماركوز، فإنه لم يتخلَّ تمامًا عن إمكان التحرر. فقد راهن على بقاء الهامش النقدي داخل الإنسان، سواء في لحظات الإبداع الفني، أو في تجربة الحب، أو في احتجاجات المهمشين، أو في ثورات الشباب. وقد رأى في الحركات الطلابية والاحتجاجات الاجتماعية في الستينيات ملامح لإرادة تجاوز النظام القائم، وكسر أفق البعد الواحد، وهو ما جعله مفكرًا ملهمًا لأجيال من المناضلين والمثقفين.

في المحصلة، فإن فكر ماركوز يُعد محاولة جريئة لقراءة العقل الأدائي في قلب المجتمع المعاصر، وتفكيك آليات الهيمنة التي تُمارس من خلال اللغة، والرغبة، والتقنية، لا من خلال السوط أو القانون. وهو بذلك يقدم نموذجًا من النقد الجذري الذي لا يكتفي بمساءلة النتائج، بل ينبش في البنى العميقة التي تنتج الاغتراب، وتأسس الامتثال، وتُقصي التفكير البديل. ومهما بدا التشخيص قاتمًا، فإن إشاراته إلى مكامن المقاومة تفتح الباب أمام إعادة بناء عقل نقدي قادر على تجاوز البعد الواحد، واستعادة التعدد المفقود في المعنى والحياة.

رابعاً: النظرية النقدية وتحديات المجتمع المعاصر

لم يكن مشروع مدرسة فرانكفورت مجرد نقدٍ نظريٍّ لعقلانية الحداثة، بل كان —وما يزال— أداة تحليلية لفهم أشكال السيطرة والتشويه التي يتعرض لها الإنسان في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. لقد رصد مفكرو المدرسة كيف أن العقل الأدائي، المرتكز على النجاعة والوظيفية والربح، قد اجتاحت مجالات الحياة كافة: من العمل والاقتصاد إلى الثقافة والتعليم والإعلام، حتى صار الإنسان نفسه يُقاس وفق قيم الاستهلاك والإنتاج.

وفي سياق المجتمع المعاصر، تتخذ تحديات السيطرة أبعادًا جديدة، خصوصًا مع صعود التكنولوجيا الرقمية، وهيمنة شبكات التواصل، وتحول الإعلام إلى صناعة رقمية معولة. فالثقافة لم تعد تُنتج فقط وفق منطق السوق، بل أصبحت تُشكّل بواسطة خوارزميات تضبط الأذواق وتعيد تشكيل الرأي العام، بما يُعيد إنتاج الاغتراب في صور أكثر خفاءً وتعقيدًا. لقد أصبحت "الصناعة الثقافية" التي تحدث عنها أدورنو وهوركهايمر تتجلى اليوم في اقتصاد الانتباه، حيث تُحتزل التجربة الإنسانية في كمٍّ هائل من البيانات، تُباع وتُشتري، ويُعاد تشكيل الأفراد من خلالها.

وإذا كان مفكرو مدرسة فرانكفورت قد نبهوا إلى مخاطر الانصياع للثقافة النمطية، فإن هذه المخاطر قد تضاعفت في ظل عالم افتراضي تُشكّله تقنيات الذكاء الاصطناعي وتوجهه مصالح كبرى. فبدل التنوير، نعيش اليوم في زمن "التحكم الناعم"، حيث تُمارَس

السلطة لا من خلال الإكراه، بل عبر الإقناع، والإغراء، وتوجيه الرغبات. من هذا المنظور، تبقى النظرية النقدية أداة فعالة لتفكيك ما يبدو بديهياً أو طبيعياً في عالم اليوم، وإعادة مساءلة البنى الاجتماعية والثقافية التي تُنتج الخضوع وتُشرعن الاستلاب. وهي بذلك تظل مشروعاً حياً ومفتوحاً، يتجاوز أدورنو وماركوز وهوركهايمر، ليمتد إلى أسئلة الحاضر، ويضع العقل مرة أخرى أمام مسؤوليته الأخلاقية والإنسانية.

ورغم مرور عقود على تأسيسها، لا يزال إرث مدرسة فرانكفورت حاضراً بقوة في الفكر الفلسفي والاجتماعي المعاصر، لا باعتبارها تياراً مكتملاً أو مغلقاً، بل كمشروع نقدي مفتوح يتطور بتطور شروطه التاريخية. لقد كانت النظرية النقدية التي بلورتها المدرسة بمثابة محاولة دؤوبة لتأصيل ممارسة فلسفية ترفض الفصل بين التحليل النظري والتحول الاجتماعي، بين الفهم والتغيير. ومن هذا المنظور، استمرت أفكارها في التأثير في عدة اتجاهات فلسفية لاحقة

ويُعد يورغن هابرماس أبرز من ورث المشروع، غير أنه أعاد تأطيره ضمن منظور جديد يسعى إلى "عقل تواصل" بديل عن العقل الأدائي، متجاوزاً النزعة التشاؤمية التي وسمت الجيل الأول. فقد رأى هابرماس أن الإمكان التحرري لا يكمن في الانفصال عن الحداثة، بل في استكمال مشروعها غير المكتمل، من خلال تقوية الفضاء العمومي، وإرساء أسس تواصل عقلاني خالٍ من السيطرة، يُعيد الاعتبار إلى التفاهم والتداول بدل التشييء والإخضاع.

كما امتدت تأثيرات المدرسة إلى ما بعد الفلسفة الألمانية، لتشكّل أحد الأسس النظرية لحركات ما بعد الاستعمار، والدراسات الثقافية، ونقد الإعلام، بل حتى في بعض تيارات ما بعد البنيوية. فقد استلهم عدد من المفكرين (كأكسيل هونيث في نظرية الاعتراف، أو نانسي فريزر في نقد النيوليبرالية) الطابع النقدي لمدرسة فرانكفورت، مطورين أدواتها لمواكبة التحولات الاجتماعية في سياق العولمة والتكنولوجيا والتعددية الثقافية. لقد ساهمت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت بإرثها في تجذير فلسفة تتسم

باليقظة النقدية، ترفض التصالح مع أنماط السيطرة الرمزية والمادية، وتُسائل باستمرار شروط إمكان التحرر، ليس فقط على الصعيد الفردي، بل أيضًا الجماعي والمؤسسي. ومن هنا، تُعد مدرسة فرانكفورت حلقة مركزية في تاريخ الفلسفة المعاصرة، لا بما أنتجته فحسب، بل بما أتاحته من أفق حوار ونقدي، ما زال يُغني النقاش الفلسفي إلى اليوم. وقد استطاع أدورنو وهوركهايمر، من خلال تحليلهما الجدلي لظاهرة التنوير والعقل الأدائي، أن يضعوا أسسًا لفهم نقدي عميق لتحولات المجتمعات الحديثة. ورغم ولادة أفكارهما في سياق خاص موسوم بصعود الفاشية وتدهور المشروع الاشتراكي، فإن أطروحاتهما تظل اليوم ذات راهنية ملحة، لما تكشفه من آليات السيطرة التي أعيد إنتاجها بصيغ جديدة في المجتمعات النيولبرالية المعاصرة.

ففي عصر التكنولوجيا الرقمية، لم تعد السيطرة تُمارَس فقط عبر أجهزة الدولة أو مؤسسات السوق، بل أصبحت جزءًا من البنية الثقافية اليومية التي تُشكّل الأذواق، وتعيد برمجة الوعي، وتنتج ما أسماه أدورنو بـ"الامتثال السعيد". فالمستهلك المعاصر، في كثير من الأحيان، لا يُقهر بالقوة، بل يُغوى بالرغبة ويُدجّن بالمتعة، بما يعيد إنتاج الاغتراب في صور أكثر نعومة. إن راهنية فكر أدورنو وهوركهايمر لا تكمن فقط في نقدهما للصناعة الثقافية، بل في دعوتهم الدائمة إلى تفكيك البديهيّات وتفجير التمثيلات السائدة التي تُخفي هيمنة القيم النفعية والربحية خلف قناع التقدم والعقلانية. وهو ما يجعل النظرية النقدية أداة مهمة لفهم تحديات مثل: تسليع التعليم، خضوع الإعلام لمنطق السوق، اختزال الإنسان في بيانات، وضمور الفضاء العمومي أمام هيمنة المنصات الرقمية.

كما أن التأكيد على أهمية "السليبي" في التفكير، أي الامتناع عن التطبيع مع الواقع القائم، والاحتفاظ بمسافة نقدية دائمة، يشكل لبّ المشروع الفكري لأدورنو. إنه رفضٌ للاكتفاء بالشرح والتفسير، وتوقُّ دائمٌ نحو تجاوز الممكن الراهن. ومن هنا، فإن إعادة قراءة فكر هذين المفكرين تمثل اليوم ضرورة فلسفية وسياسية لمواجهة ما أفرزته الحداثة من

تشبيء، وهميش، وأزمات في المعنى. إن امتدادات النظرية النقدية لا تتوقف عند حقل الفلسفة وحده، بل تتعداه إلى التربية، والإعلام، والدراسات الثقافية، والنقد الفني، مما يجعل من فكر أدورنو وهوركهايمر مرجعية متجددة لمقاومة النزعات الشمولية، والدفاع عن الإنسان ككائن حرّ وناقد، لا كمجرد مستهلك أو منتج في آلة اجتماعية لا ترحم.

خاتمة

لقد سعى هذا المقال إلى مساءلة التحولات الجذرية التي طرأت على مفهوم العقل في الفكر الغربي الحديث، من خلال تتبع نقد مدرسة فرانكفورت، لا سيما لدى أدورنو، هوركهايمر، وماركوز، لمفهوم "العقل الأدائي" الذي تحول، في ظل الحداثة الرأسمالية، من أداة تحرير إلى وسيلة للهيمنة. وكما أبرزنا، فإن هذا التحول لم يكن عرضياً أو ظرفياً، بل كان ملازماً لنشأة المشروع التنويري ذاته، الذي حمل في طياته وعداً بالتححرر، لكنه انقلب إلى نقيضه حين أُخضع الإنسان، واللغة، والثقافة، لمنطق الفعالية والربح والسيطرة التقنية.

أظهر تحليلنا أن العقل الأدائي لا يكتفي بإنتاج المعرفة أو تنظيم العالم، بل يُعيد تشكيل الذات البشرية على نحو يجعلها منسجمة مع منطق النظام القائم، من خلال التنميط الثقافي، وتكييف الحاجات، والتحكم في الرموز والمعاني. ومن هنا كانت أهمية مفهوم "الصناعة الثقافية" عند أدورنو وهوركهايمر، الذي كشف عن الكيفية التي يتحول بها الفن، والإعلام، والتربية، إلى أدوات لتطبيع الواقع، وتسويق الاستلاب في صور جذابة وناعمة. أما ماركوز، فقد وسّع هذا النقد ليشمل كل مناحي الحياة، كاشفاً عن آليات إنتاج "الإنسان ذو البعد الواحد"، الذي لا يقاوم، بل يندمج بسعادة في آلية الإنتاج والاستهلاك، متخلياً عن قدرته على التخيل والتجاوز.

وفي ضوء هذا التشخيص، يتّضح أن مشروع النظرية النقدية لا يتمثل فقط في فضح الأنساق الظاهرة للسلطة، بل في الحفر داخل البنى العميقة التي تُنتج الوعي المزيف، وتُعيد إنتاج الخضوع بطريقة لا واعية. وهذا ما يمنح هذا الفكر راهنية متجددة، خصوصاً في زمن التحولات الرقمية، وصعود الذكاء الاصطناعي، وتفكك الفضاء العمومي. فالعقل الأدائي اليوم لم يعد محصوراً في مجال الاقتصاد أو الصناعة، بل غزا التعليم، والتربية، وحتى العلاقات الشخصية، حيث يُعاد تشكيل الإنسان بوصفه "بيئاً رقمياً"، يُقاس ويُراقب، ويُعاد توجيهه باستمرار وفق خوارزميات تجارية، ما يضاعف من منسوب الاغتراب والتشبيء.

وتتمثل الإضافة العلمية لهذا المقال في تسليط الضوء على امتدادات النظرية النقدية خارج سياقها الأوروبي الكلاسيكي، وذلك من خلال ربط مفاهيمها الكبرى مثل التشيي، التنميط واغتراب الوعي، بمسائل الثقافة الرقمية، والتواصل الافتراضي، مع الإشارة إلى بعض المفكرين الذين طوّروا هذه الرؤية مثل أكسيل هونيث. وحنة أرانت "التي كان لها دور كبير في بلورت تصورات عميقة، وأراء منيرة إزاء ما ميز الفكر السياسي الحداثي برمته، عجلت بضرورة إعادة القراءة والتأسيس لمقومات الحداثة وأسسها، وكشف الستار لمظاهر الأزمة التي باتت تنخر الكيان الإنساني، خاصة في جانبه السياسي، وذلك يبرز من خلال قراءاتها وانتقاداتها، والتي أعيد بها بناء صرح سياسي معاصر، يواكب لب المعضلات السياسية المعاصرة"⁹، لقد صار من الملح اليوم التفكير في أشكال جديدة من المقاومة، تستعيد للذات حقها في التأمل والاختيار والمعنى، في مواجهة منطق الخضوع الناعم الذي تُنتجه أدوات الإعلام والتقنية.

ولعل أحد الأبعاد المهملة في التلقي العربي لهذا الفكر هو عدم استثمار النظرية النقدية في قراءة تحولات السلطة والمعنى في المجتمعات العربية، حيث يشتبك البُعد السياسي والثقافي، ويتداخل الإعلامي مع الديني، وتُمارَس الهيمنة عبر أشكال مركبة من الرموز، والخطابات، والمرجعيات. إنّ تطبيق أدوات مدرسة فرانكفورت على السياقات غير الغربية، مع التحفظات اللازمة، يفتح آفاقًا جديدة أمام فهم العلاقة بين السلطة واللغة، بين الإعلام والقيم، وبين الثقافة والهوية.

وفي هذا الإطار، فإن دعوة أدورنو إلى الحفاظ على "المسافة النقدية" تبقى أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى. إن الامتناع عن التطبيع مع الواقع، والقدرة على قول "لا" لما يبدو بديهيًا أو ضروريًا، هي من أرفع أشكال التفكير الحرّ، وهي جوهر الفلسفة النقدية التي لا تكتفي بوصف العالم، بل تسعى إلى تغييره. وقد كان أدورنو شديد الوضوح حين دعا إلى التفكير في ما لا يمكن التفكير فيه، وإلى الدفاع عن ما يبدو لا عقلانيًا من منظور العقل الأدبي، لأنه غالبًا ما يُخفي إمكانًا وجوديًا مغايرًا، يتعذر اختزاله في الأرقام والوظائف.

من هذا المنظور، فإن النظرية النقدية، رغم ما يُؤخذ عليها من تشاؤم أو تجريد، تبقى مشروعًا حيًا لمسألة العالم، لا من خارجه، بل من داخله، عبر تفكيك مسلماته، وزعزعة استقراره الظاهري. وهي لا تدّعي امتلاك الحقيقة، بل تفضّل أن تظل في حالة "سلب دائم"، ترفض الاستقرار على يقين نهائي، وتُبقي العقل في حالة توتر وانفتاح دائمين.

وختامًا، فإن إعادة قراءة فكر أدورنو وهوركهايمر وماركوز لا ينبغي أن تتم من باب الإحياء الأكاديمي فقط، بل بوصفها محاولة لاستعادة وظيفة الفلسفة في زمن التسليع، ومهمة الفكر في عصر الهيمنة. إن الحاجة إلى نقد جذري للعقلانية المهيمنة، وتفكيك البنى الرمزية للاستلاب، باتت ضرورة وجودية، وليست ترفًا نظريًا.

الهوامش والاحالات

1. عبد الغفار مكاوي: *النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت*، مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، 2018، ص: 16.
2. كريم كبروش، الشرف خاصة (2025) الحضارة الأوربية بين خطاب التنوير ووصمة البربرية. مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية 9(1), 667–693. Retrieved from <https://asjp.cerist.dz/en/article/268984>
3. تيودور أدورنو: *محاضرات في علم الاجتماع*، ترجمة جورج كتورة، مركز الانماء القومي. لبنان، 1994، ص: 112.
4. ماكس هوركهايمر: *بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية*، ترجمة محمد علي اليوسفي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، 2006، ص: 152.
5. ديفيد هوكس. *الأيديولوجيا، ترجمة /إبراهيم فتحي، المشروع القومي للترجمة*، 2000، ص: 147.
6. Théodore Adorno: *Modèles critiques-Opinions, illusions, société*, Ed. Payot, paris, 2003, p: 114
7. هربرت ماركوز: *الإنسان ذو البعد الواحد*، ط3، ترجمة جورج طرايشي، دار الآداب، بيروت، 1988، ص: 26.
8. هربرت ماركوز: *الإنسان ذو البعد الواحد*، ط3، ترجمة جورج طرايشي، دار الآداب، بيروت، 1988، ص: 28.
9. شتافي زين العابدين (2022) مقومات الفكر السياسي الحدائي والقراءات النقدية – حنة أرانت غودجا. مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية 6(1), 1062–1083. Retrieved from <https://asjp.cerist.dz/en/article/187088>